النظرة التوفيقية عند ابن قتيبة الدينوري الشاعر أحمد شوقي أنموذجاً

م.د. أحمد عبد العزيز عواد الراوي -كلية الآداب / جامعة الأنبار

المستخلص

تهدف الدراسة إلى إحياء التراث النقدي القديم، ومحاولة وصله بالحاضر، من خلال إثارة ما يسمى بالنظرة التوفيقية لابن قتيبة ، ومحاولة تطبيقها على شعر أحمد شوقي ، ومن ثم النظر في مدى صحة ما نص عليه ابن قتيبة بجعل الجودة معيارا لشاعرية الأديب والحكم على أساسها .

Abstract

The aim of this study is to revive the classical critical heritage in an attempt to relate it to the contemporary scene through the invocation what is so called the reconciliatory approach of Ibn Quotaiba in an attempt to apply it to the poetry of Ahmed Shawki. The study then evaluates the validity of Ibn Quotaiba's use of elucidation as the criterion of the stature of the poet.

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه وبعد:

فإن الدافع الأكبر الذي من أجله اخترت عنوان البحث هو محاولتي ربط الماضي بالحاضر ، وإحياء التراث النقدي والأدبي الأصيل ، والإفادة مما كتبه أولئك الأفذاذ أيام كان النقد في بداية ظهوره .

أما عن اختياري الشاعر (أحمد شوقي) نموذجاً للنظرة التي نص عليها وأقرها (ابن قتيبة) دون غيره من الشعراء الآخرين في عصرنا الحديث فذاك لأنه أميرهم الذي كان وما زال يحظى بشرف الشاعر الكبير والأمير الشهير الذي يتربع على عرش الشعر .

هذا إلى جانب كوني رأيت كثيراً من النقاد – وهذا مما يعزز فكرة البحث – يذكر إلى جانب المتنبي – أمير الشعر في زمانه – أحمد شوقي إلى درجة أنْ صارا صنوين فأفرز هذا التلازم بينهما حكماً ضمنياً بجدارة كلا الشاعرين واقتراب أحدهما من الآخر في الشاعرية والمنزلة . ولعلّ ما تعرض له المتنبي من عداوة مردها الحسد في الغالب هو نفسه الذي طال شوقي وإن اختلفت الحال .

لذلك كله فقد آثرت أن يسير محتوى البحث في مبحثين اثنين عرضت في الأول منهما النص الكامل للنظرة التوفيقية ثم عرضت فيه أهمّ ما دار حولها من نقاش بين جماهير النقاد

تمهيداً للمبحث الثاني الذي حمل عنوان (إمارة شوقي) حرصت من خلاله على ذكر أهم الألسنة الأدبية التي شهدت لشوقي بالجدارة والصدارة متوخياً الإنصاف في أحكامهم وفي حكمي عليه وعليهم ، باحثاً في أسرار الشوقيات مستشهداً بأهم الدرر الشعرية التي نثرها شوقي وخلدها أفواه الناس وأقلامهم من لدنه إلى يومنا هذا وإلى أن يشاء الله .

لأختم البحث بعدها بأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج أرجو أن أكون قد وفقت في استخلاصها وأنصفت في تحصيلها وتصديرها.

والله من وراء القصد

المبحث الأول: حول النظرة التوفيقية

لا بدّ لي قبل البدء بالحديث عن شوقي وشعره والحكم عليه سلباً أو إيجاباً – بعد توخي مكامن الجودة وإظهار القيمة الفنية في شعره فضلاً عن مواطن الإخفاق إن وجدت – لا بدّ لي قبل ذلك من التقديم بموجز عن النظرة التوفيقية وما دار حولها من نقاش لدى أبرز العلماء النقاد فأقول :

يكاد يتفق الباحثون على أن النظرة التوفيقية عند ابن قتيبة تجسدت في قوله : (ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظه ، ووفّرت عليه حقه ، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيّره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره ، وكل شريف خارجياً في أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريميّ والعتابيّ والحسن بن هانئ وأشباههم . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، أو حداثة سنة . كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدّمه) .[1]

يذهب أحمد أمين إلى أن ابن قتيبة (دعا إلى عدم التفريق في الوزن بين قديم ومحدث ، فالشعر القديم قد يكون جيدا وقد يكون رديئا والمحدث قد يكون جيدا وقد يكون رديئا ، وعلى رأيه كل قديم كان حديثا في زمنه) [2] .

إذن فالجودة هي المقياس الذي وضعه ابن قتيبة كأساس لاختيار الأشعار والترجمة لأصحابها وهذا بطبيعته يعد بمثابة رد واضح على المنهجية التي اتبعها ابن سلام في طبقاته حين

قسم الشعراء على أساس طبقي وجعل من السبق والجودة أصلا من الأصول التي من خلالها يتم تحديد الصدارة والتفوق في ميدان الشعر وفرسان القوافي .

وإزاء هذه النظرة الصادرة عن وعي وإدراك من ناقد مبدع وجدنا جمهور النقاد الذين تناولوا هذه القضية بالبحث والدراسة قد تباينت آراؤهم في الحكم على مدى صحة هذه الفكرة أو عدم ذلك ؛ فقد انقسموا إلى فريقين ما بين معجب وآخر معارض ، إلا أن السواد الأعظم منهم كان قد حكم لصالح ابن قتيبة وأبدى إعجابه بالناقد الأول الذي اتخذ من العدل والإنصاف أساسا في الحكم على الأشعار . وهذه حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها فمن يقرأ نص ابن قتيبة السابق يقر بأن (الاعتدال عند ابن قتيبة قد بسط ظله على نظرته عامة) [٣] .

ومن خلال استقصاء بعض الآراء نجد أحد النقاد يقف عند تلك النظرة التوفيقية وقد عدّها ثورة على المقلدين من أصحاب القديم تدل على فكر سليم ونظر صائب [٤] . وهذا تأكيد لما صدر عن رأي للدكتور رشيد العبيدي وبما يشبه هذا الكلام فانظر إلى تصريحه حين يقول : (وهذا مبدأ سليم للنقاد الذين يتحرون الحقائق الأدبية ويحكمون بحسب ما يقتضيه العدل والإنصاف لأن الحق أحق أن يتبع وأليق بمن ينصبون أنفسهم حكاما بين الناس لأن الظلم بغيض سواءً أكان الظلم واقعا على جنان أفكار الناس أو في اغتصاب ما يملكون من مال ومتاع) [٥] .

ويطالعنا الدكتور عناد غزوان برأيه في ابن قتيبة ونظرته بعد أن أفرد له فصلا بعنوان (ابن قتيبة ناقدا) من كتاب له إذ نجده بالصواب يحكم على موقف ابن قتيبة في نظرته التوفيقية وقضية الصراع والمفاضلة بين الشعراء ، ويعلل الدكتور عناد غزوان تلك الوقفة وهذا الحكم بقوله : (ان التعصب منبوذ في بناء أي حكم وأن العدل واجب في المفاضلة بين التقويم الفني السليم إلا على أساس الجودة الفنية الصادرة عن شاعرية فذة وموهبة أصيلة تتخطى أبعاد الزمان والمكان) [٦] .

وهنا لا بد لنا من وقفة قصيرة نتساءل فيها عما إذا كان هناك بعض المؤثرات أو العوامل التي أدت بالناقد الكبير ابن قتيبة لأن يقف هذا الموقف المشرف ويضع للنقاد معيارا نقديا قوامه الجودة والقيمة الفنية للنص الأدبي .

أقول يبدو أن ثمة عوامل خاصة كانت قد أثرت في هذا الموقف يضعنا الدكتور محمد زغلول على الجادة إذ يرى أن موقف ابن قتيبة هذا كان (قد أملاه عليه أمران ، كونه قاضيا ، وكونه بغداديا في القرن الثالث تأثر دون شك بما حظي به المحدثون من مكانة عظيمة في دار السلام) [٧] .

وهنا يعضد الدكتور محمد زغلول رأيه هذا حين ينقل لنا رأي الدكتور محمد مندور وهذا الأخير يصرح بأن (ابن قتيبة كان رجلا مستل الرأي غير خاضع لتقاليد العرب ولا مؤمن بأحكامهم ولا مطمئن إلى المعتقدات الأدبية التي كانت منتشرة في عصره) [٨] .

من هنا يتجلى لنا الإنصاف والعدل في نظرة ابن قتيبة التوفيقية (فالجودة والرداءة في العمل الأدبي متعادلتان ومتكافئتان لأنهما مقياس نقدي ومعيار للمفاضلة بين الشعراء فلا

يقاس الجيد من الشعر بالرديء منه والعكس بالعكس ، وإلا عدّ مثل هذا المقياس ضرباً من التعصب واللامنهجية) [٩] ولذا (اختار ابن قتيبة الجودة مقياسا في اختيار من ترجم له من الشعراء) [١٠] فاستطاع أن يخطو بالنقد خطوة نحو الأمام تتمثل في محاولته النظر إلى القيم الشعورية والقيم التعبيرية وأن يجعل له في النقد حسبانا [١١] .

يبقى أن أقول أن هناك من أثنى على ابن قتيبة في نظرته التوفيقية إلا أنه رجع ليأخذ عليه بعض المآخذ التي يراها واقعة في نظرته ومن هؤلاء محمد مندور نفسه الذي سبق وأن أشرت إلى إشادته بابن قتيبة وثنائه على نظرته التوفيقية . فها هو الآن يعود ليدرج لنا بعض المعايب في ابن قتيبة من حيث المنهج وخلاصتها أن مندور يعارض ابن قتيبة في نظرته معارضة تنطوي على عيبين أساسيين اتفق مع الدكتور محمد زغلول في كونها منطقية [١٢] ؛ العيب الأول : التعميم فلا يصح في منهج العلم أن يقال إلى القديم جملة ، جاهليا وأمويا خير من الشعر الحديث جملة أو من الشعر العباسي كله طوال الأربعة قرون التي عاشها الشعر العباسي ، وأما العيب الثاني : فذاك هو إهمال ابن قتيبة ذكر أساس للتفضيل ، ومن وجهة نظر الشعر ... أم من وجهة نظر اللغويين والتقليديين ، الذين يرون الشعر رصانة وجزالة وأساليب سليمة من الانحرافات [١٣] .

لذلك كله نجد أن الدكتور محمد مندور يتهم ابن قتيبة بأنه في اتجاهه النقدي كان (أكثر توفيقا في النزعة منه في النقد ذاته ، وفي المذهب الفني أكثر منه في الذوق الذي يعمله في النصوص ، ولعل هذا لغلبة تفكيره على حسه الأدبي ، فهو موجه خير منه ناقد) [١٤] ثم يدلل على اتهامه هذا بسخرية ابن قتيبة من مذهب الفلاسفة في النقد ومحاولتهم زج المنطق الشكلي في فهم اللغة وتذوقها والكتابة فيها ... [١٥] .

وإلى جانب الدكتور محمد مندور ألمح الدكتور أحمد أمين وهو يقترب إلى حد ما من فكرة مندور وما عدّ من مآخذ على ابن قتيبة في نظرته التوفيقية بعد أن وصف نظرته تلك بأنها نظرة صادقة وإنما سبقت زمانها [١٦] من ذلك – أعني العيوب – أنه قال بأن ثمة تناقض بين نظرته المتعادلة وبين حرصه على مذهب المتقدمين من حيث البناء الفني للقصيدة العربية القديمة ، هذه واحدة . والأخرى أنه فرق بين الروح العلمية والذوق الأدبي ، واشتغال الذي يربي ذوقه حفظ النماذج الأدبية وتقليدها [١٧] .

وعموما فإنه مهما يكن من شيء فإن ذلك لا يعني أن ابن قتيبة لم يقدم شيئا للنقد العربي أو أنه لم يخط به خطوة نحو الأمام ، فالنقد القديم بعمومه لم يكن إلا إشارات استطاع نقادنا فيما بعد الاستفادة من مجموعها وجعلها قواعد ثابتة تصب في خدمة النص الشعري الخاضع للتحليل . ثم إن ما قيل عن ابن قتيبة من سلبيات لا بد لها أن تكون في عصر بدائي كعصره ولا يمكن عدها مثلبة تقدح في نقد ابن قتيبة ولا في منهجيته ، ويكفيه فخرا أن انتبه إلى أهم قضية كانت ولا تزال معلما بارزا من معالم النقد الحديث لا يمكن لأي ناقد الاستغناء عنها تلك هي المعيار النقدي القائم على تتبع وتقصي الجودة الكامنة في النص الشعري . لذا فإن تلك العيوب لا تعني رداءة الحس النقدي عنده وآية ذلك أن الدكتور أحمد أمين نفسه

حين ذكر ذلك عبر عنه بقوله : (ولكن مع الأسف) [١٨] تلك العبارة التي توحي بعظم الجانب النقدي الذي ابداه وتوصل إليه ابن قتيبة . أما محمد مندور فهو الآخر يعترف بأن (ابن قتيبة كان ذا فضل في مقاومة التيار الجديد وحماية الدراسات الأدبية من طغيانه ... وان نزعته هي نزعة الآمدي وعبد العزيز الجرجاني : ذوق عربي واستقلال في الرأي ، وتنحية للفلسفة عن مجال الأدب ...) [١٩] .

وأخلص من ذلك بالقول ان نظرة ابن قتيبة التوفيقية قد وضعت حدا للعصبية السائدة وللعادات السالفة وقد صدرت عن قاض عادل ينظر إلى الأشياء بعين الناقد المنصف الذي يستمد نقده من لب الشريعة ويحكم على الأشياء وفق النظرة الحيادية التي تنظر إلى الحسن والرديء وتعطي كل ذي حق حقه ، من غير بخس ولا عدوان .

وهذا يسجل ابن قتيبة موقفا بارزا في سلم النقد ليرتقي بالأدب نحو الأمام في اتجاه النضج والكمال .

وسيظهر البحث هذا الجانب النقدي والحكم الحيادي في أمير الشعراء أحمد شوقي ليتجلى لنا الرأي التوفيقي واضحاً من خلال التنظير والتطبيق بالدليل والبرهان وذلك في المبحث الآتي.

المبحث الثاني: إمارة شوقي

في هذا المبحث أراني مضطرا إلى الحديث عن إمارة شوقي التي ربما صارت مدار القضية ومحورها الذي يدور إزاءه العنوان ؛ لأنا إذا أثبتنا صحة اللقب الذي حصل عليه شوقي والرئاسة التي حظي بها والمكانة التي تبوأها نكون بالتأكيد قد اقتربنا من صحة ما ذهب إليه ابن قتيبة في نظرته التي نص عليها منذ القدم .

وحتى أكون منصفا ألبي نداء صاحب الشأن النقدي (ابن قتيبة) عليّ أولا أن أنقل ما قاله أقران شوقي ومعاصروه من كتّاب وشعراء يعتد بشهادتهم ويسمع لهم .

وها أنذا أسمع الكاتب أحمد أمين يروي لنا إعجابه بشوقي وسلطانه الشعري في مقالته التي حملت عنوان (شوقي أمير الشعراء) يستهلها صارخا فيقول :

(في رأيي أن عرش الشعر العربي كان قد استوى عليه المتنبي عن جدارة واستحقاق ، فلما نزل عنه بموته ظل شاغرا حتى تبوأه شوقي فلما قضى نحبه لم يستوِ عليه أحد إلى اليوم...) [٢٠] .

ثم يشرع بعدها أمين يعطي المبررات التي أباحت له النطق بهذا الرأي الواثق وذلك عند ذكره للشروط الدقيقة والقاسية كما يسميها التي يجب توافرها عند فحول الشعر يقول (... ولعل أهم ما يرشح الشاعر للإمارة أن يكون لسان الناس في عصره وبعد عصره ، يعبر أحسن تعبير حيث لا يحسنون التعبير ويصوغ المشاعر والآمال والآلام أحسن صياغة حيث لا يجدون الصياغة ، فيجد كل مثقف في شعره الجميل ما يعبر عن نفسه أصدق تعبير ، إن تألم

ففي شعره ترديد لألمه وتحليل له وعزاء لنفسه ، وإن سُرَّ ففي شعره استجابة لسروره مضاعفة له ، وإن جبن ففي شعره القضاء على جبنه وتعييره بالإحجام ودعوته إلى الإقدام وهكذا) [٢١] .

ويتابع قائلا : (ثم ليس أمير الشعراء يعبر عن ذلك كله كما يعبر سائر الناس ولا سائر الشعراء ، بل يعبر التعبير كأنما يأتيه من السماء ، ويشعر السامع أو القارئ كأن هذا التعبير هو الذي كان يتلمسه فلا يجده ، وكأن الفراغ الذي لم يكن أحد يملؤه بالضبط قد ملأه وكأنه من الجودة ما ليس لأحد بعده قول) [٢٢] .

وبعد ذلك يؤيد أحمد أمين كلامه هذا بشواهد من شعر شوقي وكيف كان اللسان الناطق باسم كل المصريين والمنقذ المغيث لكل نازلة تنزل بهم وكل حادثة يبحثون بعدها عن تعليق أو جواب .

وإذا تقدمنا قليلا نرى آخر يطالعنا ، كاتب لا يبتعد كثيرا عن سابقه وعن الأمير شوقي ؛ كيف لا وهو الأديب الذي تشرف بتقديمه لديوان شوقي مقدمة تليق بكليهما ذاك هو الكاتب والروائي محمد حسين هيكل .

ولعل أهم ما جاء في المقدمة حديث كان يراودني وأنا غارق ابحث في السر الكامن في شعر شوقي وسبب ريادته وتفوقه .

فشوقي كغيره من الشعراء أقرانه يتنقل بين مدح ورثاء وهنئة وتعزية وشيء من وصف ؛ فما الجديد في ذلك وأين التمييز والتفرد ؟! لكني وبعد النظر الفاحص في شعر شوقي أيقنت أن هذه المواضيع وغيرها لم يكن لأصحابها من نصيب يذكر – ربما – سوى العناوين أما الغالب عليها فهو الحكم المتناثرة والوصف المتألق والبلاغة في أعلى مراتبها والجمال الفني الذي لا يضاهيه جمال ...

هنا فقط أدركت سر تفوق شوقي واعتلائه منبر الشعر دون سواه .

هذه الخواطر تلاقيت معها وعلى غير موعد حين قرأت مقدمة هيكل الذي وجدته يقول :

(... على أنّ شوقيا – وإن كان شاعر مصر ، وشاعر العرب ، وشاعر المسلمين ، وكان فيه الازدواج بين حب الحياة ومتاعها والإيمان ونعيمه – له ذاتيته التي لا تخفى ، فهو شاعر الحكمة العامة ، وهو شاغر اللغة العربية السليمة ، وإنك لتعجب أكثر الأحيان حين ترى عنوان قصيدة من قصائده ثم لا تجد في القصيدة غير أبيات معدودة تدخل في موضوع العنوان ، بينما سائرها حكمة أو غزل أو وصف أو ما شاء لشوقي هواه ، وما أحسب شاعرا بالغ في ذلك ما بالغ شوقي ...) [٢٣] .

وعلى غير موعد أيضا وبينما فكرة البحث تلوح في ذهني وأنا أقرأ عن إمبراطور الشعر (المتنبي) وأفكر في سرّ تربعه على عرش الشعر العربي قديمه وحديثه – بينما أنا في محراب الأدب أنظر وأتأمل إذا بي أعثر على عنوان استفزني واستهواني في الوقت نفسه ؛

كتاب بعنوان (المتنبي وشوقي دراسة ونقد وموازنة) للكاتب المصري والعالم النحوي (عباس حسن) .

وحين شرعت أقلب الكتاب وجدتني أمام مؤلف أتفق معه في الرأي إلى حد ما في هذه الجزئية التي ما برحت تلوح في ذهني مذ هممت بإنشاء البحث لاسيما وهو – أعني عباس حسن – يوازن بين قديم وحديث في مقارنات منطقية عقدها بين كلا الشاعرين أراها لا تبتعد عن البحث العلمي الدقيق رغم كونها قامت على التذوق والانطباع في كثير من النواحي الانتقائية ؛ إلا أنها في النهاية تعد محاولة جبارة في وصل الماضي التليد بالحاضر الجديد [٢٤] الذي هو صلب موضوع البحث .

والجدير بالذكر أنّ مجرد تبني الكاتب عباس هذه القضية ووضعه شوقي إلى جانب المتنبي دون سواه يعد بلا أدنى شك مؤشرا واضحا على تفوق شوقي وجدارته بالوصول إلى مصافي الكبار من شعراء العرب .

ولعل أكثر الجوانب الشعرية التي يشترك فيها كلا الشاعرين على حدّ قول المؤلف هو جانب الحكمة وبراعة كل منهما في عرضها واختيار المكان والزمان المناسب لها . فضلا عن اللغة المتينة والسهلة والعبارة الفصيحة التي كانت سمة تميز المتنبي وأخاه شوقي .

واختصاراً مني وخوفا من الإطالة فإني أحيل القارئ إلى الكتاب يدقق النظر فيه وينحت في محتواه ليمتع نظره ويشنف سمعه وهو يرى شعر المتنبي يعرض نفسه وكذا شوقي ويشعر بالصلة الكبرى التي تربط بينهما ، ثم ليفاجأ بالمرسوم النقدي الذي يصدره حسن يعلن فيه تفوق شوقي على نظيره المتنبي ؛ نتيجة أخيرة يخرج بها المؤلف قد يقف الباحث عندها على حذر إذ يرى فيها شيئاً من المبالغة التي يلجئنا الإنصاف إلى رفضها أو التحفظ عليها .

لما توفي أحمد شوقي رحمه الله أبرقت إدارة المقتطف غداة نعيه إلى الأستاذ الأديب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ترجوه إتحاف القراء بإحدى دُرره بهذه المناسبة ، وجلاء شاعرية الرجل وإيفاءه حقه ، وبيان ما له وما عليه ؛ فقام الرافعي بهذا العبء ، فقرأ ديوان شوقي ودرسه في أربعة أيام وأعدّ هذا المقال في أربعة أيام أخر ثم بيضه ونقحه في يومين ، حتى استوى في هذه الصورة . [٢٥]

استهل الرافعي مقاله :

(هذا هو الرجل الذي يخيل إليّ أنّ مصر اختارته دون أهلها جميعا ، لتضع فيه روحها المتكلم ، فأوجبت له ما لم توجب لغيره ، وأعانته بما لم يتفق لسواه ، ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمة تريد أن تكون شاعرة ، لا على قدر رجل في نفسه ؛ وبه – وحده – استطاعت مصر أن تقول للتاريخ : شعري وأدبي !) [٢٦] .

ثم لم يكتف الرافعي بهذا النعت يطرز به كفن شوقي الذي ظل في الدنيا ليكون دليلا حيا يحكي قصة ما ماتت وما دفنت إلا لتحيا أضعاف ما كانت تحياه قبل الأجل المحتوم الذي كتب لشوقي بل أضاف يقول :

(... شوقي هذا هو الاسم الذي كان في الأدب كالشمس من المشرق متى طلعت في موضع فقد طلعت في كل موضع ، ومتى ذكر في بلد من بلاد العالم العربي اتسع معنى اسمه فدل على مصر كلها ، كأنما قيل : النيل أو الهرم أو القاهرة : مترادفات لا في وضع اللغة ولكن في جلال اللغة .

رجل عاش حتى أتم ، وذلك برهان التاريخ على اصطفائه لمصر ، ودليل العبقرية على أن فيه السر المتحرك ، الذي لا يقف ولا يكل ، ولا يقطع نظام عمله ، كأن فيه حاسة نحلة في حديقة ، ويكبر شعره كلما كبر الزمن ، والناس يكتب عليهم الشباب والكهولة والهرم ، ولكن الأديب الحق يكتب شباب وكهولة وشباب ؛ إذا كانت في قلبه الغايات الحية الشاعرة ، ما تنفك يلد بعضها بعضا إلى ما لا انقطاع له ، فإنما ليست من حياة الشاعر التي خلقت في قلبه ، ولكنها من حياة المعاني في هذا القلب) [٢٧] .

وبعد هذا الإطراء العالي الذي خص به الرافعي مرثيه شوقي يعود ليذكر وليذكّر بأن الإنصاف ما برح يسير في طلعة النقد الأدبي عند الرافعي ونظرائه فذكر المحاسن والمساوئ ليس بالضرورة أن يكون قدحا ولا ينبغي أن يُخفى بل ربما هي الحلقة المكملة في حياة الصفوة ونتاجهم ومنهم الشعراء ورحم الله القائل : كفى المرء نبلا أن تعد معايبه .

لذا نجد الرافعي يذكر بعد كل ما سبق كلمات يقول في بعضها :

(أقرر هذا في شوقي رحمه الله ، وأنا من أعرف الناس بعيوبه ، وأماكن الغميزة في أدبه وشعره ؛ ولكن هذا الرجل انفلت من تاريخ الأدب لمصر وحدها ، كانفلات المطرة من سحابها المتساير في الجوّ ، فأصبحت به مصر سيدة العالم العربي في الشعر ....) [٢٨] .

ثم يمضي الرافعي في سرد بعض الأمثلة التي تبرهن على قوله [٢٩] وتؤكد براعته وتمرسه في النقد الذي لا بد له من أدوات إن لم تكن توافرت عند صاحبها لا يكون جديرا بالتصدي لمثل هذه الأعمال التحليلية ولا جديرا بأن يطلب منه الرأي ولا المشورة ؛ فالحكم أمانة وهذه الأقوال والشهادات أيا كانت ولأيّ صدرت ربما اعتمدت ، وسيبني الناس عليها أحكاما إن لم يكن اليوم فغدا . وما تجربتي الآن إلا شكل من هذه الأشكال النقدية المتواضعة .

وبناءً على مر وجدنا الرافعي وقد خرج بنتائج تتأرجح بين صعود وهبوط ثم لتأتي المحصلة الأخيرة التي مفادها :

(وشوقي على كل هذا هو شوقي : أول من احتفى بتاريخ مصر من الشعراء ، وأول من توسع في نظم الرواية الشعرية ، فوضع منها ست روايات ، وهو صاحب الآيات البديعة في الوصف ، وهذه الناحية هي أقوى نواحيه ، ولقد ألهمتني قراءة البارع من شعره في أغراضه وفنونه المختلفة : إن الله تعالى ينعم على الآداب الجميلة بأفراد ممتازين في جمال أرواحهم وقوتها ، تجد الآداب لذتها فيهم ، وسموّها بهم ، كأن الأمر قياس على ما يقع من عشق الناس لبعض المعاني ، فيكون في المعاني ما يعشق بعض الناس ، ومتى بلغ عشق المعنى لإنسان مبلغ الاختصاص والوجد ، ظهر الفنّ أبدع ما يرى ، كأن المعنى الأدبي يتجمل ويتحبب ليستميل هذا الإنسان الحاكم عليه حكم الحب) [٣٠] .

ثم إذا انتقلنا إلى الأديب الناقد والمؤرخ البارع الدكتور شوقي ضيف نجده وهو يتكلم عن شوقي في كتابه (الأدب العربي المعاصر في مصر) فيخصه بعبارات نستشف منها بعض مكامن العبقرية والإبداع في شعره يحددها ضيف في الجانب الأبرز الذي برع فيه شوقي فكان مؤهلا له أن يقف على رأس المنظومة الشعرية التي كان يتنازعها ثلة من الشعراء العرب ؛ وذلك هو الجانب الموسيقي الذي امتزج ببراعة التصوير وبالعاطفة الرقيقة وبالإحساس المرهف ، يقول ضيف : (... وربما كانت موسيقاه أروع خصاله الفنية ، فلا تستمع إلى شيء من شعره حتى تعرفه ، وإن لم يذكر لك اسمه ما دامت أذنك قد تعودت سماع شعره ، وثبتت في نفسك نغماته التي تتوالى نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة . ولا نغلو إذا قلنا إن شعره يؤلف أروع ألحان عرفت في عصرنا الحديث ؛ إذ نراه يقتصر من الألفاظ والأساليب خير ما فيها من ألحان ، تسعفه في ذلك فطرة موسيقية رائعة تقيس قياسا دقيقا ذبذبات الحروف والحركات وتآلف النغم في الألفاظ والكلمات .

وهذه الخصلة الموسيقية في شعره تسندها عنده خصلة التصوير البارع ؛ إذ كان يعرف كيف يفيد من كنوز التشبيهات القديمة ، ولم يكن يكتفي بذلك ؛ بل كان يضيف إلى هذا الاستغلال للقديم كثيرا من الأخيلة الحالمة .

وتحوط هاتين الخصلتين من الخيال الموسيقي خصلة ثالثة من العاطفة الرقيقة والإحساس المرهف ، ويتجلى ذلك في نظمه في ابنته (أمينة) وفي هرته الصغيرة ، كما يتجلى في شوقي وحنينه إلى وطنه الذي بثه في قصائده بمنفاه ... .

علما إنّ الدكتور شوقي ضيف يقسم شعر شوقي إلى قسمين واضحين الأول قبل منفاه وهو الذي عرف فيه شوقي بكونه (شاعر البلاط والحكومة) أو شاعر الخديوي .

أما القسم الثاني فهو شوقي : شاعر الشعب الذي عاد ليختار لنفسه فيه نمطا حياتيا جديدا ، وشعرا فنيا مميزا خاصا به يعتمد اعتمادا عاما على الجزالة والمتانة وتراكم الخبرة ...)[٣١] .

ومن جهة أخرى فشوقي في الأولى شاعر تقليدي وفي الأخرى شاعر التجديد الذي فاجأ الجمهور الشعري الذي اعتاد القوالب الشعرية القديمة حتى ملها بعد أن جثمت على صدره ردحا من الزمن باستثناء البارودي الذي كان الرائد الأول – والحق يقال – في محاولة التخلص من هذا القديم بعد أن مثل حلقة وصل بين ماضي محافظ وحاضر منفتح . ولعله – أعني البارودي – هو من مهّد الطريق لشوقي لهذا الشرف وذلك المجد ؛ مجد التجديد وشهرة الإبداع الشعري الذي خُصَّ به دون غيره فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولذا يختم الدكتور شوقي ضيف حديثه عن شوقي بالقول : (... وإذا قلنا إنه سابق الشعراء في النصف الأول من هذا القرن غير منازع ولا مدافع ، لم نكن مغالين ولا مبالغين ، وحقا تلقى قوالب شعره عن البارودي ، ولكنه صب فيها مشاعر أمته والأمم العربية كما حسب فيها التمثيل حسبا بديعا ، وهو صب لا يزال مثار الدهشة وموضع الإعجاب بين الأدباء والنقاد)[٣٢] .

ثم إن كنت في بداية البحث وعدت باختيار المنصفين المبدعين وأقرب الناس عهداً بشوقي وشعره أستشهد من خلالهم على القول الفصل في جدارة شوقي واستحقاقه الاختيار ليكون نموذجاً فريداً في حلبة النقد القديم – إن كنت وعدت بذلك – فها أنا ذا أواصل وفائي بذكر أمير البيان الكاتب والشاعر (شكيب أرسلان) الذي وفى هو الآخر بوعده عندما ألف كتابه الماتع (شوقي أو صداقة أربعين سنة) بعد سنتين من وفاة شوقي رحمه الله ؛ قارن بينه وبين المتنبي بعد أن أثبت مواطن الشبه بينهما ثم ألمح إلى كونه أعني شوقي – أشعر الشعراء ؛ وهو الذي سبر أغوار شوقي وشعره من صحبة ومعايشة دامت عقوداً من الزمن تعرف فيه عن قرب على شوقي الشاعر والإنسان كيف يفكر وكيف يكتب وكيف يعيش .

ولعلّ أبرز ما خرج به وقرره في شوقي قوله :

(... نعم إنّ شعر شوقي ليس طبقة واحدة حتى لا يخاله القارئ نسجاً واحداً وهو يذهب مذاهب غريبة أحياناً وربما أتى كلامه بالتعقيد وهذا من وجوه الشبه بينه وبين المتنبي الذي كان كأنه يعمد إلى الإغراب في بعض المواضع فيأتي بالغث كما يأتي بالسمين .

وإنما استحق أبو الطيب هذه الشهرة مع هذه الهنات لأنه كان متى أراد بذّ الأولين والآخرين ، وإنه متى علا لم يزاحمه أحد بمنكب وإنّ الذي يحفظ من كلامه لا يحفظ من كلام شاعر سواه حتى صار شاعر العامة ، فضلاً عن الخاصة . وهذا ما أراه في شوقي اليوم فإن عيون شعره لا يقدر على مثلها حافظ ولا غيره وقد يحلق في سماء الخيال أحياناً حتى يفوق البارودي وهو عندي حامل اللواء وأبو الجميع ...) [٣٣] .

ومع نظرية الإنصاف لا يزال الباحث يقف المحطة تلو الأخرى . إذ من الإنصاف أن ننزل الناس منازلهم ، فها هو الدكتور مصطفى إبراهيم حسين وعند كلامه عن القصيدة العربية في بحثه المعنون (الأدب بين الأصالة والتأصيل) يقرر بأن البناء الشعري الشامخ كان من نصيب الشاعر الأمير أحمد شوقي لكنه يقرر أيضا بأن ذلك البناء كان البارودي هو من أرسى قواعده ؛ وتلك حقيقة يجب الإعتراف بها وإثباتها . ونحن نتكلم عن بعض ما كان سببا في نبوغ شاعر كشوقي ووصوله إلى مصافي القمم الشعرية الشامخة . يقول الدكتور مصطفى إبراهيم (.. ثم كان شوقي صانع البناء الشامخ فوق الأساس الذي أرسى دعائمه البارودي ، أدخل الشعر المسرحي ، وخاطب الطفل العربي من خلال قصص على ألسنة الحيوان ، ومن خلال أشكال أخرى للشعر التهذيبي ، هذا إلى جانب ربط الشعر العربي بالواقع السياسي والاجتماعي وربط القصيدة العربية بآفاق عربية وإسلامية وإنسانية عامة ، بالإضافة إلى ألوان أخرى من التجديد حققها أمير الشعراء في اللغة والصورة والفكر ، جديرة بأن نتناولها المزيد من الدراسات النقدية الأمينة ، ترصدها وتكشف أبعادها ، برغم الأصوات الحداثية الناعقة ...) [٣٤]

ويبقى الباحث والقارئ يدير النظر في هذا الإنسان الشاعر الذي ترك العقول تحار في سره الكامن فيه وفي شعره ليقع بعد كدّ وتعب على نتيجة مفادها المضمون الذي جاء ملبيا لحاجة العقل الجماهيري والروح الإنسانية والأمة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ،

وأيضا سرّ آخر- وهو الأهم – التجديد الذي لم يجد رافضوه من المحافظين سبيلا إلى رده أو ذمه لأنه أكبر من أن تناله ألسنة الطاعنين أو أقلام المنتقدين .

فقد استطاع شوقي أن يتجاوز هذه المعركة وينجو من ثورة المحافظين المشنة تجاه كل من ينوي التمرد على القالب الذي خطه القدماء .

حتى أنّ المويلحي الكاتب لما قدم شوقي لديوانه الأول وقال بأنه ينوي التجديد في ضوء ما قرأ في الأدب الفرنسي ثارت ثورته فقال يرد على هذا التصريح ساخرا وتساءل (.. ما هذا الجديد الذي يريد شوقي إدخاله إلى العربية ؟ إنّ العربية لا ينقصها شيء من ذلك ، وفيها معان تفوق معاني الآداب الغربية) [٣٥] .

وربما أجد بعضا من إجابة على هذا المشكل في نظر القارئ البسيط ؛ وذلك في كتاب (عمالقة عند مطلع القرن) الذي يضعنا صاحبه على الجادة حين يقول : (لقد ذهب شوقي إلى فرنسا ، واكتشف وهو في مونبيليه أو باريس أنّ الشعر أرفع من شعراء المديح في العصر الحديث ، وفي فرنسا أيضا كان شوقي قد اكتشف أنّ القصيدة الغنائية ليس كل الشعر ، وبدأ يكتب أولى محاولاته المسرحية ، لكنه تخلى عن محاولته الأولى ، وتحول بعد عودته إلى الوطن من شاعر باحث عن التجديد إلى شاعر محافظ ، وقد ساعد ذلك التراجع الخائف كل المتعصبين الذين يرون في كل جديد غزوا فكريا أجنبيا يسيء إلى التراث ، ويشوه الشعر ، ويقضي عليه ، ويفصل الأجيال عنه ...) . [٣٦]

ولعلي في الصفحات القليلة الآتية أزف نماذج مختصرة من شعر شوقي الذي يضيق مجال البحث بتناول أكثره ؛ لذا أكتفي بعرض ما يبرهن على صدق ما ذكر في البحث وأحيل القارئ إلى الدراسات المنصفة التي أفاضت في دراسة شوقي الأمير وشعره الذي لا غنى لمثقفٍ فضلاً عن طالب أدبٍ ينشد المتعة والفائدة أن يقرأ ديوانه ويحفظ ما استطاع من جيد قصائده .

وعلى العموم وبلا شرح يطول أستطيع القول بأن سمات شعرية قيمة ، وأمارات تجديدية بينة ، وصفات للنبوغ محكمة ، سيراها المتلقي مجتمعة في آيات شوقي الشعرية وذلك أمرٌ مُيسّر لشوقي بعد مراعاته العفوية في كثير من الأحيان لجملة من أسباب ما سبق ؛ يمكن لي أن أجملها في الآتي :

في كونه شاعراً ملك زمام اللغة حتى لتخاله (معجماً وحده) يقدر على تصريف العبارة واختيار اللفظة المناسبة والصحيحة أنى وحيث شاء .

ثم طريقته في الوصف الموجز والمعبر . وكذلك تميزه في براعة الاستهلال وحسن المطالع التي حالفه التوفيق في جلها . هذا فضلاً عن الحكم المتناثرة التي تطغى على معظم موضوعاته وتطفو فوق سطح قصائده بامتياز . ثم التجارب المتنوعة التي بذل شوقي جهداً في بعضها وجاءه البعض الآخر منحة مهدية أسعفته بالكثير من اللطائف التي أنضجت عنده تلك المقدرة الشعرية الفائقة .

يضاف إلى ذلك كله الأشكال الشعرية الجديدة التي استحق بها الريادة والسيادة كمثل المسرحيات الشعرية والأدب الرمزي لاسيما أشعاره التي أجراها على ألسنة الحيوانات أو

ما شاكل ، وهي من الفنون الأدبية التي تستحق الإشادة والتقدير وقد جاءت محكمة ومعبرة وملبية لحاجة الكثيرين من أبناء الشعب المصري وغيرهم من الشعوب الأخرى .

ومع مراعاة شوقي لذلك كله ظلت البساطة في التعبير ووضوح المعنى والنأي عن التعقيد أهم ما يميز شعره الذي تقلد به شرف التجديد الحقيقي فاستطاع أن يرتقي منصة التتويج ليباري فحول الشعر في الزمن الحاضر والغابر .

وانظر إليه وهو يستعيض ببيت من قصيدة عن شرح يطول وشعر يجول إذ يقول :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نمْ فالحوادث كلهن أمان (٣٧)

ويلخص الداء ويضع الدواء حين ينطق بالحكمة والجزالة والوضوح قائلاً :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا (٣٨)

وإذا سألت شاعرنا شوقي من أنت ؟ أجابك وهو يصف فنّ شكسبير أروع وصف ويعني به نفسه إذ يقول :

شعر من النسق الأعلى يؤيده من جانب الله إلهام وإيحاء
من كل بيت كآي الله تسكنه حقيقة من خيال الشعر غراء
وكل معنى كعيسى في تفرده جاءت به من بنات الشعر عذراء
أو قصة ككتاب الدهر جامعة كلاهما فيه إضحاك وإبكاء (٣٩)

وإذا تأملت بعضاً من قصائده على سبيل المثال لا الحصر تجد أغلبها يتطابق المعنى فيه مع اللفظ بحسب ما يقتضي الموضوع . خذ مثلاً همزيته في مدح النبي ﷺ رغم كونها قامت على الوعظ والتذكير في مجملها إلا أنها لم تمل في الوقت ذاته مراعاة ما قلناه ؛ فقد جاءت حروفها وكلماتها منسجمة تبعا للفكرة ، بسيطة وبلا تكلف ، واسمعه يقول في بعضها :

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فإنما هي غضبة في الحق لا ضغن ولا بغضاء
وإذا رضيت فذاك في مرضاته ورضا الكثير تحلم ورياء
وإذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندي وللقلوب بكاء
وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما جاء الخصوم من السماء قضاء
وإذا حميت الماء لم يورد ولو أن القياصر والملوك ظماء
وإذا أجرت فأنت بيت الله لم يدخل عليه المستجير عداء
وإذا ملكت النفس قمت ببرها ولو ان ما ملكت يداك الشاء
وإذا بنيت فخير زوج عشرة وإذا ابتنيت فدونك الآباء
وإذا صحبت رأى الوفاء مجسما في بردك الأصحاب والخلطاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا مشيت إلى العدا فغضنفر وإذا جريت فإنك النكباء

وتمد حلمك للسفيه مداريا حتى يضيق بعرضك السفهاء [٤٠]

ومن حكم شوقي التي تخللت قصائده الحربية قوله مثلاً في الدستور :

الحق أبلج والكنانة حرة والعز للدستور والإكبار
الأمر شورى لا يعيث مسلط فيه ولا يطغى به جبار
إنّ العناية للبلاد تخيرت والخير ما تقضي وما تختار
عهد من الشورى الظليلة نضرت آصاله واخضلت الأسحار
تجني البلاد به ثمار جهودها ولكل جهد في الحياة ثمار [٤١]

وفي نكبة دمشق قال شوقي قصيدة درجت على ألسن الناس وهي من رائعات القصائد ومطلعها:

سلام من صبا (بردا) أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق
وذكرى عن خواطرها لقلبي إليك تلفت أبدا وخفق
وبي مما رمتك به الليالي جراحات لها في القلب عمق
دخلتك والأصيل له ائتلاق ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جنانك الأنهار تجري وملء رباك أوراق وورق [٤٢]

أما في الثورة العثمانية التي انتهت بإسقاط السلطان عبد الحميد فقد نظم قصيدة تجمع بين الرقة والقوة وتعد بلا أدنى شك من روائع الشوقيات وفيها يقول :

سل (يلدزاً) ذاتَ القصور هل جاءها نبأ البدور ؟
لو تستطيع إجابة لبكتك بالدمع الغزير
أخنى عليها ما أنا خ على الخورنق والسدير
ودهى الجزيرة بعد إسما عيل والملك الكبير
ذهب الجميع فلا القصو ر ترى ولا أهل القصور [٤٣]

وإذا انتقلنا إلى مطالع شوقي في قصائده نجده قد أولاها عناية فائقة لاسيما وهو يعلم أنها أول ما يقرع الأسماع وينبه الأذهان ويوقظ النيام ؛ فجاءت مطالعه لهذا مؤثرة قوية .

خذ على سبيل المثال قوله في قصيدة ينعى بها شعبه المختلفة أحزابه ويدعوهم إلى لم الشمل والوحدة ونبذ التفرق :

إلامَ الخلف بينكم إلاما وهذي الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما [٤٤]

وفي همزيته الشهيرة آنفة الذكر يبتديها بقوله :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

ومن مطالعه الجيدة قال يخاطب الفلك (السفينة) حين أوصله إلى البسفور ومفاتن الطبيعة الساحرة فيه :

على أي الجنان بنا تمرّ وفي أي الحدائق تستقرّ ؟

رويداً أيها الفلك الأبرّ بلغت بنا الربوع ؛ فأنت حرّ [٤٥]

وقوله في رثاء ابر أصدقائه إسماعيل صبري باشا :

أجلٌ – وإن طال الزمان – موافي أخلى يديك من الخليل الوافي [٤٦]

وفي رثاء عمر المختار قال :

ركزوا رفاتك في الرماد لواءا يستنهض الوادي صباح مساءَ

يا ويحهم !! نصبوا مناراً من دم يوحي إلى جيل الغد البغضاءَ [٤٧]

أما عند خطابه للجيل ودعوته احترامهم وتبجيلهم المعلم فقد نظم قصيدة جاء في مطلعها :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا [٤٨]

وعلى مثل هذه المطالع جاءت أكثر قصائده اعتناءً ؛ إذ كان شوقي يحرص في كل قصيدة على أن يصرّع بيته الأول ليجمع بين جمال اللفظ ودقة المعنى .

ثم إذا انتقلنا إلى النَفَسِ الطويل الذي كان يتمتع به شوقي وهو ينظم مطولات نأى بها عن السآمة والملل اللذين يجتنبهما في الغالب هذا النوع من النظم ؛ نجده يقف متحديا ثم مجيدا.

وحسبه أن كتب قصيدة ناهزت المائتين والستين بيتاً لا يكاد بيت فيها يخلو من حكمة أو حنكة أو حبكة ، ولست تجد فيها من الحشو والإسهاب إلا النزر القليل ، نظمها على البحر الخفيف الذي يصعب على كثير من الشعراء النظم عليه أو إيفاءه حقه ، وهي من أروع قصائد شوقي كتبها في كبار الحوادث التي وقعت في وادي النيل وألقاها في المؤتمر الشرقي الدولي في جنيف في أيلول ١٨٩٤م قال في مطلعها :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

ضرب البحر ذو العباب حواليـ ـها سماءً قد أكبرتها السماء [٤٩]

... ...

ومعلوم أن إرهاقا أو عجزا ربما لزم كثيرا من الشعراء إذا هم أحدهم بإنشاء قصيدة طويلة ؛ إذ ذاك أمر لا يتأتى إلا للفحول من الشعراء ومنهم شاعرنا شوقي الذي لو لم يكن نظم سوى قصائده الثلاثة التي جعلها في مدح النبي الأكرم رسولنا محمد ﷺ لكفاه دليلاً على اقتداره واشتهاره :

الأولى همزيته الشهيرة والثانية (ذكرى المولد) تلك التي قال في مطلعها :

سلوا قلبي غداة سلا وثابا لعلّ على الجمال له عتابا [٥٠]

وهذه الثانية من أجمل ما قاله شوقي توّجها بالبيت الشعري الذي قاله فسار مثلاً :

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ولعله البيت الذي فجّر الطاقة الشعرية لدى شوقي ففتح له آفاقاً من الشعر الخالد ليصوغ بعده سبيكة من ذهب تقشعر معها الأبدان وتنصاع لسماعها الآذان والأذهان ويستجيب لها راغباً غير مكرهٍ كل إنسان وجان :

وَما نيلُ المَطالِبِ بِالتَمَنّي وَلَكِن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابا

وَما استعصى عَلى قَومٍ مَنالٌ إِذا الإِقدامُ كانَ لَهُمْ رِكابا
تجَلّى مَولِدُ الهادي وَعَمَّتْ بَشائِرُهُ البَوادي وَالقِصابا
وَأسدَتْ لِلبَرِيَّةِ بِنتُ وَهبٍ يَدًا بَيضاءَ طَوَّقَتِ الرِقابا
لَقَد وَضَعَتهُ وَهّاجًا مُنيرًا كَما تَلِدُ السَماواتُ الشِهابا
فَقامَ عَلى سَماءِ البَيتِ نورًا يُضيءُ جِبالَ مَكَّةَ وَالنِقابا
وَضاعَت يَثرِبُ الفَيحاءُ مِسكًا وَفاحَ القاعُ أَرجاءً وَطابا
أَبا الزَهراءِ قَد جاوَزتُ قَدري بِمَدحِكَ بَيدَ أَنَّ لِيَ انتِسابا
فَما عَرَفَ البَلاغَةَ ذو بَيانٍ إِذا لَم يَتَّخِذكَ لَهُ كِتابا
مَدَحتُ المالِكينَ فَزِدتُ قَدرًا فَحينَ مَدَحتُكَ اقتَدتُ السَحابا (٥١)

ولقد صدق شوقي حين قال :

فَما عَرَفَ البَلاغَةَ ذو بَيانٍ إِذا لَم يَتَّخِذكَ لَهُ كِتابا

فهو إذن شرط يضعه شوقي ويبوح به في معرض المدح لمن أراد أن يكون آية في الشعر وعلماً من أعلام الأدب الذين يشار إليهم بالبنان ، وإن شئت فسل به خبيرا ! .

أما الثالثة فهي (نهج البردة) التي عارض فيها البوصيري ؛ رائعة من روائعه أفرغ فيها فنه الجميل ؛ وصفا وإيقاعا وتماسكا وروحا وعاطفة وخيالا ومعجما ورسالة شاعر . قاربت المئتين بيتا على وزن البسيط يقول في مطلعها :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

وإني كلما نظرت في هذه الأخيرة والأولى التي ناهزت المئة والثلاثين بيتاً والأخرى التي زادت على الخمسين أقول ربما أرى ضعفاً في التعبير ونقصاً في الأداء لكن إذا بي أكتشف تألقاً وصعوداً يأتيان تبعاً لتقادم الأبيات حتى يصل بك شوقي إلى الختام الذي اعتاد أن يجعله مميزاً ليبقى أثراً عالقاً في ذهن المتلقي يتردد صداه مع نهاية كل قصيدة على اختلاف أشكالها وأنواعها ، ثم ليسترجع ذلك الصدى كلما رغب في ذلك من غير عناء ولا مشقة .

وقل مثل هذا على معظم قصائده ، وهذه بعض الخواتيم :

ففي قصيدة (عفو القادر) ختمها بقوله :

يلاقي بعيد الأهل عندك أهله ويمرح في أوطانه المتغرب (٥٢)

ويجعل لقصيدته (الله والعلم) ختاماً مفاده :

فآمنت بالله الذي عزّ شأنه وآمنت بالعلم الذي عزّ طالبه (٥٣)

وفي قصيدة العلم والتعليم وواجب المعلم ينهيها شوقي بالدرس الأخير فيقول :

ما أبعد الغايات !! إلا أنني أجد الثبات لكم بمن كفيلاً
فكِلوا إلى الله النجاح وثابروا فالله خير كافلاً ووكيلاً (٥٤)

وفي قصيدته (مرحبا بالهلال) التي ألقاها في رأس سنة ١٣٢٩ الهجرية ينهيها بالحكمة البالغة والنصيحة الشاملة إذ يقول :

لو أنّ أبطال الحروب تفرقوا غلب الجبان على القنا الأبطالا (٥٥)

ولا يخفى ما هذا البيت من إتقان واضح وحرفة شاعر- كما في غيره - لاسيما في اختيار الألفاظ ؛ فالمتفرقون أبطال وليسوا مقاتلين عاديين والذي غلبهم على العكس من ذلك مقاتلون جبناء ؛ وبهذا يتضح الأثر البالغ للتفرق وفعله المشين في الأمم والشعوب .

أما في قصيدة (توت عنخ أمون) الشهيرة والتي كتبها شوقي يشير بها إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس كما تذكر الروايات ؛ فقد روي أنّ يوشع قاتل الجبّارين يوم الجمعة فلما أدبرت للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه منهم ، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى ، فردّ له الشمس حتى فرغ من قتالهم . قال شوقي في مطلع تلك القصيدة :

قِفي يا أختَ يوشَعَ خَبِّرينا أحاديثَ القُرونِ العابِرينا
وَقُصّي مِن مَصارِعِهِم عَلَينا وَمِن دولاتِهِم ما تعلَمينا [٥٦]

فلما وصل ختام القصيدة وافق بين المبدأ والختام في لمحة شعرية معبرة :

زَمانُ الفَردِ يا فِرعَونُ وَلّى وَدالَت دَولَةُ المُتَجَبِّرينا
وَأصبَحَتِ الرُعاةُ بِكُلِّ أرضٍ عَلى حُكمِ الرَعِيَّةِ نازِلينا

ويطول بنا المقام إذا مضينا في استقصاء جميع ما في الباب من أمثلة ، ولعل ما تجدر الإشارة إليه هو عناية شوقي بخواتيم قصائده التي نسجها على طريقة الحكاية وخصوصاً في الحيوانات التي يريد بها شوقي - إضافة إلى التسلية والدعابة – النقد الإجتماعي الهادف والبناء ومحاولة الإصلاح بأسلوب الرمز والإشارة والتعريض الذي يبدو أن شوقي قد عارض فيه ابن المقفع في كتابه الماتع (كليلة ودمنة) . فمن الأمثلة [٥٧] :

قصيدة (الصياد والعصفورة) التي ختمها بقوله :

إياك أن تغترّ بالزهاد كم تحت ثوب الزهد من صياد

وفي قصيدة (البلابل التي ربّاها البوم) يقول :

بلابل الله لم تخرس ، ولا وُلدت خرساً ، ولكنَّ بوم الشؤم رباها

وفي (العصفور والغدير المهجور) :

إن خفي النافع فالنفع ظهر يا سَعْدَ من صافي وصوفي واستتر

وفي (السلوقي والجواد) يقول :

أما ترى الطير على ضعفها تطوي إلى الحب مئات البلاد ؟

وفي (فأر الغيط وفأر البيت) :

فناحت الأم ، وصاحت : واها ! إنّ المعالي قتلت فتاها !

وفي (الثعلب والديك) الشهيرة :

مخطئ من ظن يوما أنّ للثعلب دينا

وفي (النعجة وأولادها) :

إذا الرعاة على أغنامها سَهِرَتْ سَهِرْتُ من أطفالي على الراعي

وفي (الكلب والقط والفأر) قال :

فقلت في المقام قولاً شاعا « من حفظ الأعداء يوماً ضاعا »

وفي (سليمان والهدهد) :

إنّ للظالم صدراً يشتكي من غير علة

وفي (سليمان والطاووس) :

فلو أصبحت ذا صوتٍ لما كلمت إنسانا

وفي (الكلب والحمامة) :

هذا هو المعروف يا أهل الفطن الناس بالناس ومن يَعِنْ يُعَنْ

وفي (الجمل والثعلب) يقول :

ليس بحمل ما يميل الظهر ما الحمل إلا ما يعاني الصدر

ثم أقول لو لم يكن لشوقي من الفضل سوى هذا الإبتكار الحاصل في الأشكال والمعاني والأوزان واستيلائه على هذا النوع من الأدب لكفاه فخراً ومجداً ونبوغاً في الشعر وإحياءً له بعدما قيل من صيرورته رفاتا إثر موات .

ويطيب لي قبل الختام أن أمرّ على جميل ما كتب شوقي من أغنيته التي تمالأ على إجادتها حسن التصرف ، وسلامة الذوق في اختيار وزن الشعر الأنسب الذي عرف به شوقي ، بل امتاز ، وكان من دواعي التغني بغزله ذاك هو قصيدته :

يا ناعِماً رَقَدَت جُفونُه مُضناكَ لا تهدا شُجونُه
حَمَلَ الهَوى لَكَ كُلَّه إن لَم تُعِنهُ فَمَن يُعينُه
عُد مُنعِماً أو لا تعُد أودَعتَ سِرَّكَ مَن يَصونُه
بَيني وَبَينَكَ في الهَوى سَبَبٌ سَيَجمَعُنا مَتينُه
رَشَأٌ يُعابُ الساحِرو نَ وَسِحرُهُم إلّا جُفونُه
الروحُ مِلكُ يَمينِهِ يَفديهِ ما مَلَكَت يَمينُه
ما البانُ إلّا قَدُّهُ لَو تيَّمَت قَلباً غُصونُه
وَيَزينُ كُلَّ يَتيمَةٍ فَمُهُ وَتحسَبُها تزينُه
ما العُمرُ إلّا لَيلَةٌ كانَ الصَباحَ لَها جَبينُه
باتَ الغَرامُ يَدينُنا فيها كَما بِتنا نُدينُه
بَينَ الرَقيبِ وَبَينَنا وادٍ تُباعِدُهُ حُزونُه
نغتابُهُ وَنقولُ لا بَقِيَ الرَقيبُ وَلا عُيونُه [٥٨]

وفي الختام لا يسعني إلا أن أسدل ستار شوقي وفنه على ما سبق من نفيس شعره نموذجاً لمجموعة شعرية بأسرها لا ينسلخ منها نص ولا ينفر إلا كما ينسلخ من الإنسان الذي فطر على النقص وجبل على الخطأ بعيداً عمن كمّله ربه فصلى عليه الله ما انخط القريض وتشظى في ربى الكون العريض ، وسلم تسليماً كثيراً .

خاتمة:

أستطيع بعد ما مضى من تجوالٍ في رحاب شوقي ؛ شعره وفكره ونقّاده ومنصفيه – أستطيع بعد ذلك – أنْ أخلص إلى جملة من النتائج أجملها في الآتي :

١- يعد شوقي بحق النموذج الأوفر حظاً لتمثيل النظرة التوفيقية التي أتى بها ونصّ عليها ابن قتيبة في القدم .

٢- نال شوقي لقب أمير الشعراء بجدارة واستحقاق بشهادة المنصفين من أبناء جيله والذين من بعدهم ، أرغمهم عليها حِكَمُهُ الرائعة وعباراته البليغة وجمله السهلة الصعبة ووصفه المتألق وواقعيته البريئة وكونه اللسان الشعري الناطق لأهل زمانه وتابعيهم .

٣- شوقي أميرٌ استطاع أنْ يحظى بشرف ما يطيب لي أنْ أطلق عليه : (التجديد المحافظ) الذي جمع فيه بين أصالة الماضي وحنكة الحاضر .

٤- إنّ لقب الإمارة الذي حصل عليه شوقي لم يكن ليكون إلا بعد إخضاع شعره لجملة من معايير النقد التي اتفق عليها أساطين البلاغة ، وأبرزها : رسالة الشاعر وجزالة ألفاظه وشرف معانيه والموضوعات والأغراض الشعرية التي كتب فيها والحكم التي نتجت عن كل ما سبق ، ومن ثم التجديد الذي زايل التعصب للقديم أو التنكر له ، ورفض الانفتاح الشعري الذي ضاعت معه هيبة الشعر والشاعر .

٥- يقترب الشاعر أحمد شوقي من نظيره الشاعر أحمد المتنبي ويشبهه في كثير من الجوانب التي تأهل بها الثاني ليصبح أمير عصره ، فحذا الأول حذوه ليبلغ نفس الشأو وذات الشأن والمنزلة .

٦- أستطيع القول ختاماً أنّ النظرة التوفيقية يمكن تطبيقها بناءً على ما توصل إليه الباحث على جميع الشعراء وفي كل العصور وبلا تردد .

هوامش البحث:

١- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ت : محمد أحمد شاكر ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٦م ، ١٠-١١.
٢- النقد الأدبي ، ٤٧٧ ، أحمد أمين ، ط ٤ ، ١٩٦٧م ، ٢/١ .
٣- النقد الأدبي عند العرب ، ١٠٧ .
٤- ينظر عمود الشعر عند أبي تمام ، مجلة المورد ، مج ٨ ، العدد ٣-٤ ، ١٩٧٢م ، ٩٣.
٥- دراسات في النقد الأدبي ، رشيد العبيدي ، ط ١ ، ١٩٦٩م ، ١١٢/١-١١٣ .
٦- آفاق في الأدب والنقد ، د. عناد غزوان ، ١٩٩٠م ، ١٢٢ .
٧- تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري ، د. محمد زغلول سلام ، ١٩٦٤م ، ١١٣ .
٨- المصدر نفسه ، ١١٣ .
٩- آفاق في الأدب والنقد ، ١٢٢ .
١٠- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب ، د. ابتسام مرهون الصفار ود. ناصر حلاوي ، ب ت ، ١٣٥.

١١- ينظر النقد العربي أصوله ومناهجه ، سيد قطب ، ب ت ، ١٣٣.
١٢- ينظر تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري ، ١١٣ .
١٣- ينظر المصدر نفسه ، ١١٤ ، وينظر النقد المنهجي عند العرب ١٢ ، ١٣ ، محمد مندور.
١٤- النقد المنهجي عند العرب ، ١٧ .
١٥- ينظر المصدر نفسه ، ١٧ .
١٦- النقد الأدبي ، أحمد أمين ، ٤٧٨ .
١٧- ينظر المصدر نفسه ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ .
١٨- المصدر نفسه ، ٤٧٨ .
١٩- النقد المنهجي عند العرب ، ١٨ .
٢٠- فيض الخاطر ، وهو مجموعة مقالات أدبية واجتماعية للكاتب أحمد أمين ، ط ٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ-١٩٥٣ م ، مج ١٠/١٠٠ .
٢١- المصدر نفسه ، ١٠/١٠٠ .
٢٢- المصدر نفسه ، ١٠/١٠٠ .
٢٣- الشوقيات ، شعر المرحوم أحمد شوقي ، أربعة أجزاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٦ ، مقدمة الجزء الأول لهيكل : ١٥ .
٢٤- ينظر : المتنبي وشوقي دراسة ونقد وموازنة ، عباس حسن ، ط ١ ، ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م ، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده ، مصر .
٢٥- ينظر : وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، دار القلم ، دمشق ، حققه وعلق حواشيه واعتنى به ووضع فهارسه الأستاذ محمد علي كاتبي ، ط ١ ، ٢٠٠٩ ، ٣١٩/٣ الهامش .
٢٦- وحي القلم : ٣١٩/٣ .
٢٧- وحي القلم : ٣١٩/٣ - ٣٢٠ .
٢٨- وحي القلم : ٣٢٠/٣ .
٢٩- ينظر وحي القلم : ٣٣٠/٣ وما بعدها .
٣٠- وحي القلم : ٣٤٣/٣-٣٤٤ .
٣١- ينظر : الأدب العربي المعاصر في مصر ، الدكتور شوقي ضيف ، مكتبة الدراسات الأدبية ، ط ١٠ ، دار المعارف ، ١١٥-١١٦ .
٣٢- الأدب العربي المعاصر في مصر : ١٢٠ .
٣٣- شوقي أو صداقة أربعين سنة ، بقلم شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه بمصر ، ١٣٥٥هـ-١٩٣٦م ، ٨٩ .
٣٤- البيان الأدبي : الأدب بين الأصالة والتأصيل ، د. مصطفى إبراهيم حسين : مجلة البيان : ٣٨/١٣٤ .
٣٥- نقلا عن كتاب : الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره ، سالم الحمداني ، فائق مصطفى ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، الموصل ، ١٩٨٧ ، ٣٥١ .
٣٦- عمالقة عند مطلع القرن ، الدكتور عبد العزيز المقالح ، منشورات دار الآداب ،- بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٨م ، ١٢ .
٣٧- الشوقيات .
٣٨- قاله شوقي بيتاً تناقلته الأفواه وليس له مكان محدد في الديوان .
٣٩- الشوقيات ، ٧/٢ .
٤٠- الشوقيات ، ٣٣/١ .
٤١- الشوقيات .

٤٢- الشوقيات ، ٧٢/٢ .
٤٣- الشوقيات ، ٩٧/١ .
٤٤- الشوقيات ، ١٧٠/٢ .
٤٥- الشوقيات ، ٣٨/٢ .
٤٦- الشوقيات ، ٨٢/٣ .
٤٧- الشوقيات ، ١٤/٣ .
٤٨- الشوقيات ، ١٤١/١ .
٤٩- الشوقيات ، ١٧/١ .
٥٠- الشوقيات ، ٦٣/١ .
٥١- الشوقيات ، ٦٥/١ .
٥٢- الشوقيات ، ٥٤/١ .
٥٣- الشوقيات ، ٧٤/١ .
٥٤- الشوقيات ، ١٤٤/١ .
٥٥- الشوقيات ، ١٤٧/١ .
٥٦- الشوقيات ، ٢٠٢/١-٢٠٣ .
٥٧- ينظر : مجموعة القصائد في الجزء الرابع من الشوقيات في باب الخصوصيات ، فصل (الحكايات) من صفحة ٨٧ إلى ١٢٧ .
٥٨- الشوقيات ، ١٣٩/٢ . وانظر: المتنبي وشوقي دراسة ونقد وموازنة ، ٣٥٩

المصادر والمراجع:

١- آفاق في الأدب والنقد ، د. عناد غزوان ، ١٩٩٠م .
٢- الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره ، سالم الحمداني ، فائق مصطفى ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، الموصل ، ١٩٨٧ .
٣- الأدب العربي المعاصر في مصر ، الدكتور شوقي ضيف ، مكتبة الدراسات الأدبية ، ط ١٠ ، دار المعارف .
٤- البيان الأدبي: الأدب بين الأصالة والتأصيل، د.مصطفى إبراهيم حسين:مجلة البيان .
٥- تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري ، د. محمد زغلول سلام ، ١٩٦٤م .
٦- دراسات في النقد الأدبي ، رشيد العبيدي، ج ١ ، ط ١ ، ١٩٦٩م.
٧- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ت : محمد أحمد شاكر ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٦م .
٨- شوقي أو صداقة أربعين سنة ، بقلم شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه بمصر ، ١٣٥٥هـ-١٩٣٦م .
٩- الشوقيات ، شعر المرحوم أحمد شوقي ، أربعة أجزاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٦ .

١٠- عمالقة عند مطلع القرن ، الدكتور عبد العزيز المقالح ، منشورات دار الآداب ،- بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٨م .
١١- عمود الشعر عند أبي تمام ، مجلة المورد ، مج ٨ ، العدد ٣-٤ ، ١٩٧٢م .
١٢- فيض الخاطر ، وهو مجموعة مقالات أدبية واجتماعية للكاتب أحمد أمين ، ط ٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ-١٩٥٣ م
١٣- المتنبي وشوقي دراسة ونقد وموازنة ، عباس حسن ، ط ١ ، ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م ، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده ، مصر .
١٤-محاضرات في تاريخ النقد عند العرب ، د. ابتسام مرهون الصفار ود. ناصر حلاوي ، ب ت .
١٥-النقد الأدبي ، أحمد أمين ، ج١ ، ٢ ، ط ٤ ، ١٩٦٧م .
١٦- النقد الأدبي عند العرب .
١٧- النقد العربي أصوله ومناهجه ، سيد قطب ، ب ت .
١٨- النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور.
١٩- وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، دار القلم ، دمشق ، حققه وعلق حواشيه واعتنى به ووضع فهارسه الأستاذ محمد علي كاتبي ، ط ١ ، ٢٠٠٩ .